V.E.L

ر.ش رسالة في تفسير قوله تعالى "وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله" ، تأليف محمد عبد الحميد الشقرا .

بخطه في القرن الرابع عشر الهجري .

٢٦٦٠ ٤٤ ق ١٨ س ١٨×٢٢ سم

نسخة جيده خطها رقعه حديث .

ا- التفسير ، القرآن وعلومه أ- الشقرا ، محمد بن عبد الحميد

ب- محمد عبد الحميد الشقرا (ناسخ) ج- تاريخ النسخ

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن أنزل قرآناً أعجز فحول البلاغة . وصلاة وسلاماً
على سيدنا محمد الذي أدى رسالة ربه وبلاغه "وبعد"

فهذه رسالة في تفسير قول الله عز وجل "وإن كنتم
في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا
شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا
ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة
أعدت للكافرين " صدق الله العظيم

وإني أتقدم بها بين يدي الامتحان النهائي وقد بذلت فيها
قصارى المجهود حسبما وقع تحت نظري من المراجع فإن
كنت قد وفقت لأداء الغرض فذلك من فضل الله .
وإلا فمن ذا الذي لا يجوز عليه الخطأ . نسأل الله تعالى أن
يجنبنا الزلل إنه سميع مجيب وهو حسبي ونعم الوكيل

محمد عبد الحميد الشقرا

« مقدمة »

سنة الله تعالى في ارسال الرسل أنه اذا أراد أن يبعث في أمة رسولا بمعجزة أعدها لقبول تلك المعجزة وادراك معنى اعجازها.

وهذا هو الذي يصح به التحدي وتقوم به الحجة لاثبات الرسالة.

وأنت اذا قلبت نظرك في معجزات الرسل صلوات الله عليهم رأيت أن الله تعالى جعل معجزة كل نبي فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم وفيما كانوا يتباهون به وكانت عوامهم تعظم به خواصهم.

فلما كان السحر شائعا في قوم فرعون ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامه في زمانه جعل الله تعالى معجزة موسى عليه السلام في توهينه وابطاله — كذلك لما كان الغالب في زمان عيسى عليه السلام الطب جعل الله تعالى معجزته في ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى.

ولما كان الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى العرب ومعلوم اشتهارهم بالفصاحة ونبوغهم فيها حتى هاموا بها هياما قدموها على وسائل حياتهم كلها فأقاموا لها الأسواق وعقدوا الأندية والمجامع ... الى ما سنقف عليه في هذا الصدد

اقتضت حكمة الحكيم جل شأنه أن تكون معجزة رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم من جنس ما انتشر في هذه الأمة واشتهرت به ونبغت فيه ألا وهي القرآن الكريم.

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . هو آية الله الخالدة ومعجزة نبيه الدائمة . لا يسبيل عليه لبيد الزمان وحوادثه فهو روح من أمر الله تعالى أوحى به الى نبيه صلى الله عليه وسلم وحفظه على مر الأزمان " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " جمع فيه وسائل الهدى والارشاد الى مناهج الحق واتباع الصدق الى تبشير وتحذير وأعذار وانذار وحكم بالغة واخبار صادقة ومواعظ وآداب وأخلاق فاضلة . ببلاغة فاقت على العقول فبهرتها وفصاحة استولت على النفوس فملكتها . في حسن تأليف يسحر الألباب . كم فيه من برهان قاطع وحجة دامغة . هذب لغة العرب بأسلوب لم يكن لغيره وجمعهم على لغة واحدة ودين واحد . نفذ الى الأفئدة نفوذ السهم من الرمية فمزق حجب العماية وهتك ستر الغواية . وأذل الطغاة حكمه فخضعت لبرهانه ودانت لسلطانه . وخشعت له قلوب المعاندين كما ذلت له نفوس المكابرين .

وقد اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أن العصر الذي أنزل فيه القرآن هو أرقى الأعصار عند العرب . وأغزرها مادة في الفصاحة . وانه المتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب . وأنفس ما كانت العرب

تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب في القول والسبق الى أصابة مكامن الوجدان من النفوس ومقر الإذعان من العقول. وتفانيهم في المفاخرة بذلك أمر معلوم

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه وتكذيبه في الأخبار عن الله وبذلهم في ذلك جهد استطاعتهم. وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندة الأمراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته. والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته. وقد اشتد جميع أولئك في مقاومته. وانهالوا بقولهم عليه استكبارا عن الخضوع له وتمسكا بما كانوا عليه من اديان آبائهم وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم. وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ويسفه أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم الى مالم تعهده آباؤهم ولم تخف لمثله أعلامهم. ولا حجة له بين يدي ذلك كله الا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من هذا الكتاب. ولقد تحداهم - وهم أهل البيان - في عبارات قارعة محرجة ولهجة واخزة مرغمة أن يأتوا بمثله أو سورة منه فما فعلوا. ولو قدروا لما تأخروا. وما أشد حرصهم على تكذيبه ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم.

واتسع له أمطاقهم. هذا العجز المنزل بعد ذاك التحدي الصارخ هو أثر تلك البلاغة الفائقة. وهذا السكوت الصامت بعد ذاك الاستفزاز الشامخ هو أثر ذلك الكلام العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

جاء الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدي ولجاج القوم في التعدي أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة. وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام. وقضى حكمه العلي على جميع الأحكام. أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأوضح برهان على أنه ليس من صنع البشر. وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهي والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأمي صلوات الله عليه ما

وقد آن أن نشرع في المقصود فنقول وبالله الاستعانة والتوفيق

قال الله تعالى « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا »

لما وصف الله تعالى في مطلع السورة الكتاب العزيز بصفاته الجليلة التي من جملتها تنزهه عن أن يعتريه الريب شرع يوضح اتصافه بذلك بتحقيق أنه منزل من عند الله تعالى على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب - مع أنهم جازمون بأنه من كلام البشر كما يعرب عنه قوله تعالى إن كنتم صادقين - إما للإيذان بأن غاية ما يمكن صدوره عنهم وإن ركبوا متن المكابرة واقتعدوا غارب العناد هو الريب. وأما الجزم بأنه من كلام البشر فخارج عن دائرة الاحتمال. كما أن تنكيره وتصديره بكلمة الشك للإشعار بأنه حقه أن يكون ضعيفا مشكوكا فيه. وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهاية قوتها. ولم يقل وإن ارتبتم فيما نزلنا للمبالغة في تنزيه ساحة التنزيل الكريم عن شائبة وقوع الريب فيه حسبما نطق به في قوله تعالى "لا ريب فيه" وللإشعار بأن ذلك إن وقع فمن جهتهم لا من جهته العالية. واعتبار استقرارهم فيه وإحاطته بهم لا ينافي ضعفه لما أن ما يقتضيه ذلك هو دوام ملابستهم به لا قوته وكثرته.

وأنت خبير بأن تخريج الآية الكريمة على هذا المعنى يفيد أن المخاطبين

جميعا كانوا جازمين بكونه من كلام البشر . والتحقيق أن يقال أنه
كان في المخاطبين من يعرف الحق وينكره عنادا وهؤلاء لا سبيل إلى
محاجتهم . وفيهم الجازمون بأنه من كلام البشر وكان مقتضى الظاهر
أن يقال لهم وإذ كنتم جازمين بأنه من كلام البشر فأتوا بسورة إلخ
إلا أنه غير النظم الكريم لأجل ما ذكر أولا من الاعتبارات . وفيهم المرتابون
حقيقة وكان مقتضى الظاهر أن يقال لهم وإذ كنتم في ريب مما نزلنا إلخ لأن
إنْ إنما تستعمل في المعاني المحتمل المشكوك وإذا تستعمل في المعاني
المحقق المجزوم بوقوعها . إلا أنه اقتضى الحال قصد تعيير المخاطب على
الشرط فجيء بإن ليؤدى بها هذا المقصد الحكيم والمعنى القويم . وتوضيح
ذلك أن كونهم في الريب أمر مقطوع به وكان يناسب إذا لكن جيء
بإن لقصد توبيخ المخاطب على وقوع هذا الشرط منه واعتقاده إياه
وتفهيمه أن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط من أصله لا يصلح إلا
لفرضه كما يفرض المحال لغرض من الأغراض . والمحال وإن كان يناسب
الإتيان بإذا أيضا لكونه مقطوعا بعدم وقوعه لكن استعمال إن فيه
شائع كثير لتنزيله منزلة المحتمل المشكوك على سبيل المساهلة وإرخاء
العنان لقصد التبكيت وإسكات الخصم وإلزامه . فالإتيان بإن
أفاد كما ترى فائدتين لطيفتين الأولى تنزيل الشرط منزلة المحال
لما قام من الأدلة على نفيه لقصد التوبيخ . فكأنه قيل إن الريب في المنزل

لا ينبغي أن يصدر من العقلاء اعتقاده كالمحالات المقطوع بانتفائها لقوة
دلائل الإعجاز فما لعقولكم جنحت إليه وزعمت اعتقاده . والثانية
تنزيل هذا المحال المقطوع بانتفائه منزلة المشكوك فيه تنزلا مع الخصم
واستدراجا ليعثر حيث يراد إسكاته وإلزامه بالإتيان بأمر يسلم الانتفاء
عن أثر هذا التنزيل . فكأنه قيل إن الريب في الكتاب محتمل أن يكون فيطمعه
الخصم بسماعه لما يدل على ذلك ثم يقال لهم فأتوا بسورة مثله على نظمه
وأسلوبه فإن عجزوا كان ذلك أبلغ في التقريع وأنكى في التوبيخ .
وشيء من هذا لا يكون إذا جرى على ما هو مقتضى ظاهر الحال .
والريب في الأصل مصدر رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة وهي قلق
النفس واضطرابها سمي به الشك لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة
وفي الحديث دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة والصدق طمأنينة .
ومنه ريب الزمان لنوائبه فإنها مما يقلق النفس .   وفيه في محل
ابتدائية متعلق بمحذوف وقع صفة لريب . وحمله على السببية ربما يوهم
كون المنزل محلا للريب في الجملة وحاشاه ذلك . وما سواء أكانت
موصولا أو موصوفا عبارة عن الكتاب العزيز . وليس معنى الريب في الآية
الكريمة ارتيابهم في صحة أحكامه واستقامة معانيه . بل في نفس كونه وحيا
منزلا من عند الله تعالى . وإيثار التنزيل المنبئ عن التدريج على الإنزال
لتذكيرهم ما منه حصل ارتيابهم وليبنى عليه تحديهم . فإنهم اتخذوا

تنزيلاً منجماً ذريعة إلى الطعن فيه فجعل ذلك أداة لحملهم على الإذعان له
والاعتراف به وكأنه قيل إن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله تعالى
لتنزيلنا إياه منجماً على حسب الوقائع فهاتوا أنتم مثل نوبة فذة من نوبه
ونجم فرد من نجومه فإنه أيسر من تحديكم بجملة إذا كان الإنزال وقع دفعة
وهذه المكابرة غاية في التعجيز والتبكيت وإزاحة لما عساهم يتعللون به
لو كان التحدي على خلاف هذا النسق البديع والتعجيز المريع . وفي قوله مما نزلنا
التفات من الغيبة إلى التكلم لتفخيم المنزل . وعدى التنزيل بكلمة على
لإفادتها الاستعلاء الدال على تمكن المنزل من المنزل عليه واستقراره .
وكلمة إلى إنما تفيد الوصول والانتهاء فقط . وفي ذكره صلى الله عليه
وسلم بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضميره جل شأنه من تفخيم أمره
والتنويه بشأنه ما لا يخفى وفيه إيذان بكمال طاعته وانقياده لمولاه .
وقرئ على عبادنا والمراد هو صلى الله عليه وسلم وأمته لأن جدوى المنزل
والهداية الحاصلة به لا تختص به بل يشترك فيها المتبوع والتابع فجعل كأنه
نزل عليهم . أو المراد جميع الأنبياء عليهم الصلوة والسلام والرسول
صلى الله عليه وسلم أول مقصود وأسبق داخل لأنه الذي طولب معاندوه
بالتحدي في شأن القرآن . وفيه إيذان بأن الارتياب فيه ارتياب فيما
أنزل من قبله لكونه مصدقاً له ومهيمناً عليه .

قال الله تعالى «فأتوا بسورة من مثله»

الأمر من باب التعجيز وإلقام الحجر كما في قوله تعالى فأت بها من المغرب والفاء للجواب مفيدة لسببية الشرط للجزاء . وسببية الارتياب للأمر أو الإتيان بالمأمور به لما أشير إليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور فإنه سبب للأول مطلقا وللثاني على تقدير الصدق . كأنه قيل إنه كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتوا بمثله لأنكم تقدرون على ما يقدر عليه سائر بني نوعكم — والسورة الطائفة من القرآن العظيم المترجمة باسم خاص وأقلها ثلاث آيات وواوها أصلية منقولة من سور البلد لأنها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها أو محتوية على فنون من العلوم احتواء سور المدينة على ما فيها . أو من السورة التي هي الرتبة ومنه قول النابغة

ألم تر أن الله أعطاك سورة :: ترى كل ملك دونها يتذبذب

فإن سور القرآن مع كونها في أنفسها رتبا من حيث الفضل والشرف أو من حيث الطول والقصر فهي من حيث انتظامها مع أخواتها في المصحف مراتب يرتقي إليها القارئ شيئا فشيئا . أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين . وقيل واوها مبدلة من الهمزة من أسأرت في الإناء سؤرا أي أفضلت منه بقية ومنه سؤر الدواب . فالسورة على هذا قطعة وطائفة من القرآن كالسؤرة التي هي البقية من الشيء . ولتفصيل القرآن وتقطيعه سورا

فوائد كثيرة . منها أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان
أحسن وأنبل وأفخم من أن يكون بيانا واحدا . ومنها أن القارئ إذا ختم
سورة ثم أخذ في أخرى كان ذلك أنشط له وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو
استمر على القراءة أو أطال القرآن كله سورة واحدة . ومنها أن الحافظ إذا
حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها
فاتحة وخاتمة فيعظم عنده ما حفظه ويجل في نفسه

ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل والزبور وسائر ما أوحاه إلى
أنبيائه على هذا المنهاج مسورة مترجمة السور . وبوب المصنفون في كل فن
كتبهم أبوابا موشحة الصدور بالتراجم .

ومن في قوله (من مثله) بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة والضمير
لما نزلنا أي بسورة كائنة من مثله في علو الرتبة وسمو الطبقة والنظم الرائق والبيان
البديع وحيازته سائر نعوت الإعجاز . وجعلها تبعيضية يوهم أن له
مثلا محققا وقد أريد تعجيزهم عن الإتيان ببعضه كأنه قيل فأتوا ببعض ما هو
مثل له وهذا يفيد أنه لا مدخل لاعتبار المماثل في عجزهم مع أن المراد
اعتبارها منشأ للعجز . وقد يجاب دفعا للإيهام المتقدم أنه لم
يقصد إلى مثل ونظير معه ولكنه نحو قول القبعثري للحجاج . وقد توعده
بقوله لأحملنك على الأدهم - مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب .
أراد من كان على صفة الأمير من السلطان والقدرة وبسطة اليد ولم يقصد

أحداً يجعله مثل الحجاج . وقيل من زائدة على ما هو رأي الأخفش بدليل
قوله تعالى فأتوا بسورة مثله . بعشر سور مثله .. ويجوز أن يعود الضمير لعبدنا
ومن للابتداء أي بسورة كائنة ممن هو على حال من كونه بشراً أمياً لم يقرأ
الكتب ولم يتعلم العلوم .
ويحتمل أن يتعلق الجار بالفعل وهو فأتوا وحينئذ يتعين أن يعود الضمير لعبدنا
لأن رجوعه إلى المنزل يقتضي عرفاً أن له مثلاً محققاً . ونظير ذلك أنك إذا قلت
ائتني من دار الكتب بكتاب أفاد أن هناك داراً للكتب موجودة بخلاف
ما إذا قلت ائتني بكتاب من دار الكتب فإنه لا يفيد وجودها . وحمله على
معنى ائتني بجناح من العنقاء على معنى أن العنقاء لم توجد فلم يوجد جناحها
احتمال عقلي لا يرتكب في تراكيب البلغاء بشهادة الذوق والاستعمال .
فلهذا يتعين أن يعود الضمير لعبدنا على هذا الوجه .
والعمدة في الفرق بين صحة إعادة الضمير إلى المنزل في الاحتمال الأول
وعدم صحته في الثاني هو الاستعمال والذوق . فإن الفرق بين ائتني بجناح
من العنقاء وائتني من العنقاء بجناح وما يفيده التركيب الأول من
عدم وجودها والثاني من وجودها يكاد يكون محسوساً لا يخفى على من
تتبع كلام البلغاء وتراكيب الفصحاء .
والرد إلى المنزل أرجح لأنه مروي عن ابن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن
وأكثر المحققين ويدل على الترجيح له وجوه . الأول أنه المطابق

لقوله تعالى "فأتوا بسورة مثله" وسائر آيات التحدي كقوله تعالى "فليأتوا بحديث
مثله" وقوله على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله وقوله فأتوا بعشر
سور مثله فإن المعتبر في الجميع مماثلة المأتي به للمنزل لا كونه من مثل المنزل عليه
"الثاني" أن أصل الكلام سوقه لبيان المنزل حيث قال وإن كنتم في ريب
مما نزلنا ولم يقل في الذي أنزلنا عليه. فحق الحديث أن يصار بآخره إلى ما قصد
بأوله ليتسق النظم وتتحد الغاية والمبدأ. "الثالث" المبالغة في التحدي
لأنه وهو تحدي الجم الغفير بأن يأتوا بكلام مثل ما أتى به واحد نشأ بين ظهرانيهم
أبلغ في تحديهم من أن يطلب منهم أن يأتي شخص آخر مثله بمثل ما أتى به هو
لجواز عجز الواحد الأمي وقدرة الجميع على ذلك "الرابع" الدلالة على أن القرآن
معجز في ذاته لا من حيث كون المنزل عليه أميا حتى لو فرض نزوله على غير النبي
صلى الله عليه وسلم لظهر إعجازه "الخامس" الخلو عن إيهام خلاف المقصود
فإن رده إلى عبدنا يوهم إمكان صدوره ممن لم يكن على صفته بأن كان ممارسا للخط
ودراسة العلوم "السادس" أن الملائم لقوله تعالى وادعوا شهداءكم أن
لو كان المراد فليأت واحد آخر أمي بنحو ما أتى به هذا الواحد لم يحتج إلى
أن يستظهر بالشهداء في قوله وادعوا شهداءكم.

هذا. وقد وقع التحدي في الكتاب العزيز على طرق متنوعة فأولا تحداهم
بالقرآن كله بقوله تعالى "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" وثانيا بعشر سور

لقوله تعالى « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » وثالثاً بسورة لقوله تعالى « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله » . والسر في ذلك توجيه نظر المرتابين وحضهم على استجماع سائر الوسائل الممكنة لهم في المعارضة وتمهيدهم في ذلك أزاحة للعذر وألقاما للحجر إذ لا يخفى موقع هذا التنزل في المعارضة من نفوسهم التي كانت غاية في الحمية والأنفة الجاهلية فبعد أن كان التحدي بما ينيف على ستة آلاف آية الأمر الذي قد يكون لهم منه وجه في الوقوف أمامه عاجزين انتقل بهم إلى عشر سور ثم إلى ثلاث آيات قصار لا تزيد في مجموعها على بيت أو بيتين من شعرهم وهم أذ ذاك أمراء الكلام وملوك الفصاحة وإليهم القول الفصل في اختيار أعظم التراكيب وأعلى الأساليب - لا جرم كان سكوتهم عناءً مع هذا التقريع الشنيع ليس إلا لأنه استنفد عجزت وقرائحهم جمدت عن أن تدعي وتقول :

قال الله تعالى « وادعوا شهداءكم من دون الله »

الشهداء جمع شهيد كفقيه وفقهاء وظريف وظرفاء أو جمع شاهد كشاعر وشعراء والأول أولى لاطراد فعلاء في فعيل دون فاعل . والشهيد مشهور في معنى الحاضر ومنه قوله تعالى أو ألقى السمع وهو شهيد وكذا في معنى الشاهد أي القائم بالشهادة . ويكون بمعنى الناصر حيث يقال أنا شهيده وشاهده أي ناصره ومعينه . ويكون بمعنى الإمام لأنه يحضر المجتمعات

ويبرم بمجاوزة الأمور . والتركيب دال على الحضور ومنه قيل للمقتول في سبيل
الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه أو حضرته الملائكة فهو بمعنى شاهد أو مشهود.
ومعنى دون أدنى مكان من الشيء ويقال هذا دون ذاك أي إذا كان أحط منه
قليلا ثم استعير للتفاوت في الأحوال والرتب المعنوية فقيل زيد دون عمرو أي
في الفضل والشرف ومن الشيء الدون وهو الدنيء الحقير . ثم اتسع فيه فاستعمل
في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي حكم إلى آخر من غير ملاحظة انحطاط أحدهما
عن الآخر فيجري مجرى أداة الاستثناء نحو لا يتخذ المؤمنون الكافرين
أولياء من دون المؤمنين أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين
وكلمة من ابتدائية متعلقة بادعوا أو بشهداءكم والمعنى في الأول
وادعوا متجاوزين الله تعالى للاستظهار من حضركم كائنا من كان أو الحاضرين
في مشاهدكم ومحاضركم من أشرافكم ورؤسائكم الذين تفزعون إليهم في الملمات
وتعولون عليهم في المهمات . أو القائمين بشهادتكم الجارية فيما بينكم من الأمناء
المتولين لاستخلاص الحقوق بتنفيذ القول عند الولاة . أو القائمين بنصرتكم
حقيقة أو زعما من الإنس والجن ليعينوكم على المعارضة والاستظهار على خصمكم.
وإخراجه سبحانه وتعالى من حكم الدعاء في الأول مع أنه داخل في الحاضرين ليس
لبيان استبداده بالقدرة على ما كلفوه فإن ذلك يوهم أنهم لو دعوه لأجابهم
إليه . بل المراد من إخراجه من الحاضرين هو تأكيد تناول الدعاء لجميع ما عداه
وأما في باقي الوجوه فإخراجه للتصريح من أول الأمر ببراءتهم منه تعالى وكونهم

في غاية المحادة والمشاقة لله تعالى فأحضروهم استظهاراً بهم على ما سواه . والالتفات
بإظهار الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة . وقيل المعنى ادعوا شهداءكم
فصححوا بهم دعواكم ولا تستشهدوا بالله تعالى فإنه الله يشهد أنه ما تدعيه
منه فإنه من ديدن المحجوج العاجز عن إقامة الحجة . وهذا يوهم أنهم قد تصدوا
للمعارضة وأتوا بشيء مشتبه الحال متردد بين المثلية وعدمها وأنهم ادعوها
مستشهدين في ذلك بالله سبحانه إذ عند ذلك تمس الحاجة إلى الأمر بالاستشهاد
بالناس والنهي عن الاستشهاد به تعالى وأنى لهم ذلك وما يناسبه لهم عن ربه
ولا نبسوا ببنت شفة . وقيل الكلام على تقدير مضاف أي ادعوا من دون
أولياء الله تعالى ومن غير المؤمنين شهداءكم ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله
وهذا من المساهلة وإرخاء العنان والإشعار بأن شهداءهم وهم مدارة القوم
الذين هم وجوه المشاهد وفرسان المقاول والمناقل تأبى عليهم الطباع وتجمح
بهم الإنسانية والأنفة أن يرضوا لأنفسهم الشهادة لصحة الفاسد البين
عندهم فساده واستقامة المحال الجلي في عقولهم إحالته . وضعف هذا
من جهة أنه يشعر بعدم شمول التحدي لأولئك الرؤساء وهو غير ظاهر
والمعنى على الثاني وادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله
تعالى في اتخاذها كذلك . والتعبير عن الأصنام بالشهداء لتعيين مدار
الاستظهار بها بتذكير ما زعموا من أنها بمكانة من الله تعالى وأنها تنفعهم بشهادتها
لهم أنهم على الحق فإن ما هذا شأنه يجب أن يكون ملاذاً لهم في كل أمر لهم وملجأ

يأوون إليه في كل خطب ملم كأنه قيل ادعوا عدتكم فأعدوهم لهذه الداهية التي دهمتكم. فوجه الالتفات الإيذان بكمال سخافة عقولهم حيث آثروا على عبادة من له الألوهية الجامعة لجميع صفات الكمال عبادة ما لا أحقر منه. وقيل لفظة دون مستعارة من معناها الوضعي الذي هو أدنى مكان من الشيء للقدام كما في قول الأعشى. تريك القذى من دونها وهي دونه. أي تريك القذى قدام الزجاج والحال أن الخمر قدام القذى لرقتها وصفائها. والمعنى عليه ادعوا شهداءكم الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى ليعينوكم على المعارضة. وإيرادها بهذا العنوان لمراعاة الإشعار بمناط الاستعانة بها. ووجه الالتفات تربية المهابة وترشيح ذلك المعنى فإن ما يقوم بهذا الأمر في ذلك المقام الخطير حقه أن يستعان به في كل مرام. وفي أمرهم على الوجهين بأن يستظهروا في معارضة القرآن الذي أخرس كل منطيق بالجماد غاية التبكيت والتهكم بهم.

والوجه أن يراد بالشهداء ما هو أعم مما ذكر أي كل ما في استطاعتهم دعاؤه أعم من الحاضر أو القائم بالشهادة أو الناصر أو الإمام حسبما فسر به كل منها بدليل قوله تعالى "أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله" حيث لم يخص الدعاء فيها بشيء مما ذكر ويكون قوله من دون الله تنازع فيه كل من ادعوا وشهداءكم وأعمل الثاني ولم يضمر في الأول لأن المتنازع فيه ليس مرفوعا.

قال الله تعالى « إن كنتم صادقين »

أي في زعمكم أنه من كلام عليه الصلاة والسلام وحذف جواب الشرط لدلالة ما سبق عليه أي إن كنتم صادقين فأتوا بسورة من مثله . واستلزام المقدم للتالي من حيث أن صدقهم في ذلك الزعم يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله بقضية مشاركتهم له عليه الصلاة والسلام في البشرية والعربية مع ما امتازوا به من طول ممارستهم للخطب والأشعار وكثرة مزاولتهم لأساليب النظم والنثر والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام لا سيما عند المظاهرة والتعاون ولاريب أن القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به ودواعي الأمر به .

« معنى الآية الكريمة »

لما أقام الدليل على إثبات الصانع وأبطل القول بالشريك عقبه بما هو الحجة على صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والتوحيد والتصديق قوامان وليدا أمر واحد هو الإيمان . لا ينفك أحدهما عن الآخر . فالآية وإن سيقت لبيان الإعجاز إلا أن الغرض منها إثبات النبوة التي يدل عليها الكتاب المنزل من عند الله تعالى المسكت بفصاحته إلى الغاية لجميع الفصحاء . والمفحم ببلاغته من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء . والمعجز ببيانه من تحداه من العرب العرباء .

وقد تضمن الآية الكريمة الطريقة التي تعرف بها إعجاز القرآن وتيقن
أنه من عند الله تعالى فقال وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا الآية.
أي أن الدلائل قد تكاثرت والآيات قد تواترت على صدق ما يدعيه عبدنا
محمد صلى الله عليه وسلم في شأن القرآن وأنه من عند الله تعالى حتى لم يبق
هناك مجال لأن يرتاب فيه مرتاب. وأن الريب لا يمكن أن يكون وإنما
يفرض كما يفرض من المحال لغرض من الأغراض لا على سبيل الحقيقة ونفس
الأمر لتعاضد الأدلة وتساندها على انتفاء الريب من أصله وقلعه
من أساسه. وآية صدقه أنه يتحدى فصحاءكم أجمعين ويحرككم
بأداة التقريع وعبارات التعجيز لتتحرك فيكم حميتكم العربية وأنفتكم
الجاهلية مع ما جبلتم عليه من الأفراط في مضادة الرسول ومضارته
ومعاداته ومقاتلته. فالطعن باللسان أهون من الضرب بالسنان.
يقول لكم قد جعلتم محور ريبكم وأساس طعنكم في شأن القرآن الكريم
مبنيا على تنجيمه في النزول على عادة الخطباء والكتاب في خطبهم وكتبهم
حسبما يعن لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة لا يلقى
الناظم ديوان شعره دفعة ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله جهرة
فادعيتم أنه لو كان من عند الله تعالى لكان أن أنزل جملة كسائر
الكتب التي نزلت من قبل على أنبيائه كموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام
فإن صح ما تقولون وصدق ما تزيفون فهاتوا أنتم نوبة واحدة

من نوب، وهلموا أنجما فرواسمة نجومه في سلاسة النظم ورصانة التأليف
وإصابة مرامي القول من المعاني العالية والنكات الفذة. فإن هذا
أيسر عليكم من تحديكم بجملة لو أنزلناه دفعة. فما لكم خرس نطقكم
وسكتت معارضتكم في حال أنه لم يتحدكم إلا بآية؟ كان استبعادكم أن
يكون من عند الله وتصحيحكم أن يكون من مقول من سواه. مع أنه قد
أطلق لكم العنان ولم يتحكم عليكم في المعارضة بما هو المألوف بين
المتعارضين والمسموح به بين المتنازلين من مقارعة الواحد للواحد
والمثيل للمثيل. بل أباح لكم أن تجتمعوا أنتم ومن على شاكلتكم وتدعوا
متجاوزين الله تعالى من حضركم في زمانكم وفي مشاهدكم ومحاضركم وجميع
وجوهكم وأعيانكم وكل من تتصورون منهم نصرتكم ومعاونتكم لتكون
لكم منهم معونة على المعارضة ونصرة على المغالبة. أو تدعوا أصنامكم
الذين اتخذتموهم آلهة متجاوزين الله في اتخاذها لأنه إن كان الأمر
كما تقولون من أنها تضر وتنفع فقد وقعتم بمنازعة الرسول في فاقة
شديدة وحاجة عظيمة لا مندوحة لكم في التخلص منها إلا بالتسليم
لقوله والإذعان له أو الاستظهار بآلهتكم التي ترجون منها النفع وتتوقعون
منها الضر فتعجلوا الاستعانة بها إن أزمعتم على إصراركم فهي
لا تغني عنكم شيئا واعلموا أنكم مبطلون وعن الصراط ناكبون.

"بعض ما تشعر به الآية الكريمة"

يستفاد أنه عليه الصلاة والسلام كان قاطعا بصحة نبوته وإلا لما بلغهم
كل هذا التقريع ولما نادى عليهم بالعجز جهارا لأن المبطل المزور
لا يجرؤ أن يقف هذا الموقف. وقد صدق الواقع فيما يدعيه فإنك إذا
تصفحت التاريخ من زمانه عليه الصلاة والسلام إلى عصرنا هذا تجد
أنه لم يخل وقت من الأوقات ممن يعادى القرآن ويتمنى الفرص للوقيعة
به فكم مهج بذلت وأموال صرفت بسخاء وكرم عن الطاعة والقول فيه
وكان من السهل عليهم أن يستبقوا أنفسهم وما أنفقوا ويأتوا بثلاث
آيات يقضون بها هذا الإشكال الذى أرداهم ويدفعون الإلزام الذى
أعياهم. ولكن لم يشذ فرد بالإتيان بما يصح أن يعارض به هذا القرآن
أو يشبه أن يكون قريبا منه. قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل
هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

ويستفاد أنه يصح بناء الكلام على أسلوب يغاير الأسلوب الذى يقتضيه
الظاهر لمغزى فيه روعة وبلاغة فإنه خاطبهم بخلاف ما يقتضيه ظاهر
حالهم تنبيها على أن الأولى بهم إذا هم لزموا العناد وأبوا الانقياد.
فأنت ترى أنه تعالى وصفهم بالكون فى الريب مع أن بعضهم جازمون بأنه
من كلام البشر إيذانا بأن غاية ما يتصور منهم مع شدة عنادهم واستكبارهم
إنما هو الريب وأما الجزم المذكور فخارج عن دائرة العقل والاحتمال

ولو قال وإن كنتم جازمين بأن من كلام البشر فأتوا بسورة لا أحاداً أيضاً لكن
ما في النظم الكريم من الإغراب في تبكيتهم على هذا الاعتقاد الغريب والمبالغة
في تصويره على هذا النحو العجيب قلع لهم عن اعتقادهم وتقريب
للحق من عقولهم .

ويستفاد أن تسوير القرآن الكريم لم يكن أمراً محدثاً كما عليه أكثر المحدثين
من أنه سور في زمن سيدنا عثمان رضي الله عنه . بل هو الآن على حد ما أنزل
الله ولذا ترى التحدي مرة بالقرآن ومرة بسورة .

ويستفاد أنه عليه الصلاة والسلام طالبهم بسورة مثل هذا المنزل فعجزوا
فدل هذا على أن القرآن معجز . فلولا أنهم حين سمعوه سمعوا كلاماً لم تطرق
أسماعهم وأنهم راضوا أنفسهم فأحسوا العجز عن أن يأتوا بما
يضاهيه أو يدانيه لكان محالاً أن يدعوا المعارضة ويتعرضوا لشبا الأسنة
ويقتحموا موارد الهلكة . لكن أسكتتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصوصيات
صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم في مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري
ألفاظها ومواقعها ومحاسن أدهشتهم في مضارب أمثاله ومساق أخباره
وصورة عظاته وكيفية ترغيباته وترهيباته . وبهرهم أنهم تأملوا جميع
سوره وآيه فلم يجدوا كلمة لم تقع في محزها أو يمكن أن يستغني عنها
بغيرها أو ينبو بها مكانها . بل وجدوا اتساقاً بهر عقولهم وضيع رشدهم
ونظاماً وإحكاماً وإتقاناً لم يترك في نفوسهم موضع مطمع حتى خرست
الألسن عن أن تدعي وتقول .

«موازنة بين القرآن الكريم وبين كلام الفصحاء»

أن للقرآن الكريم أسلوبا يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب كلام العرب فهو عجيب التأليف إلى الحد الذي علم عجز الخلق عنه.

ليس للعرب كلام في مثل فصاحته وتصرفه البديع ومعانيه اللطيفة وفوائده الغزيرة وحكمه الكثيرة وتناسبه في البلاغة وتشابهه في البراعة على هذا القدر وهذا الطول. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف.

أما القرآن فعلى كثرته وطوله متناسب في الفصاحة كما قال الله تعالى «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»، وكما قال «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا». فلا جرم أن كلام الناس يقع فيه التفاوت والاختلال إن امتد وطال.

أن جميع فنون المعاني التي ذكرت في القرآن لا اختلال في فصاحتها ولا نبو في مظانها وكلها في المنزلة العليا. كالقصص والمواعظ والاحتجاج والحكم والأحكام والأعذار والإنذار والوعد والوعيد والتبشير والتخويف والأوصاف وتعليم الأخلاق الكريمة والشيم الرفيعة. لا تشعر فيها باختلال ولا تحس فيها باختلال بل كلما قرأت زدت روعة وأخذ النظم الكريم بمشاعرك وملك قلبك حتى لا تنصرف عنه إلا كما تنصرف عن أحب شيء إليك.

ولا كذلك كلام البليغ الكامل والخطيب المصقع والشاعر المفلق فإنه يختلف باختلاف الأغراض. فمن الشعراء من يجيد في المدح دون الهجو ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو الحرب أو الروض أو الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب. ومن الناس من يجيد الرجز ولا يجيد القصيد أو لا ينظمه ومنهم من يجيد في الكلام المنثور دون المنظوم الى غير ذلك من الأحوال.

أما القرآن الكريم فكلما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في بديع التأليف ولا نزول فيه عن المنزلة العليا. والاعجاز في الآية الطويلة والقصيرة سواء - أن القرآن على ما فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب. وهذا أمر تتبين فيه الفصاحة وتظهر فيه البلاغة. ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف. وكثير من الشعراء قد وصف بالنقص عند الانتقال من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه. حتى أن أهل الصنعة اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه. في الخروج من النسيب الى المديح وقالوا أنه لا يحسنه الا في مواضع محدودة له فيها خروج يرتضى. وإنك لا تكاد تجد من يحسن الانتقال من شيء الى شيء والتحول من باب الى باب كلما أراده.

أما القرآن الكريم فمرتبط بعضه ببعض . وليس فيه انتقال من غرض الى غرض مفاجأة
بل لا بد أن يكون بين الغرضين مناسبة تجعل السامع لا ينقطع اقباله .
قال الله تعالى "" طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا
ممن خلق الأرض والسموات العلا الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما
في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى
الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال
لأهله امكثوا اني آنست نارا "" .. الى الآيات فمن لم يتدبر يحسب أن قصة
موسى عليه الصلاة والسلام ذكرت اقتضابا . والواقع غير ذلك فانها ذكرت
ليأتسي بها النبي صلى الله عليه وسلم في تحمل أعباء النبوة . فان هذه السورة مكية من
أوائل ما نزل . فمعنى الآية احمل أعباء النبوة كما حملها موسى .
وقال تعالى "" ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد
الله حقا وهو العزيز الحكيم خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي
أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج
كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال
مبين "" - العزيز هو القوي الذي لا يغلبه شيء ولا يمنعه من انجاز وعده
ووعيده . والحكيم هو الذي لا يضع شيئا الا في موضعه فقوله تعالى خلق
السموات بغير عمد الآية دليل على عزته التي هي كمال القدرة وحكمته التي هي كمال
العلم وتمهيد لقاعدة التوحيد وهو قوله تعالى هذا خلق الله الآية فليس

قوله تعالى خلق السموات الآية مقتضبا :

أن القرآن وضع موقعا في البلاغة خارجا عن العادة في كلام الإنس والجن . فالجن يعجزون عن الإتيان بمثله كما يعجز الإنس منفردين ومجتمعين . قال الله تعالى «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» ، وقد كانت العرب تعتقد مخاطبة الجن وتحكي عنهم كلاما وتروي لهم شعرا ولا يكاد من يتجاوز يصل إلى فصاحة الإنس . وقد قال الله تعالى «وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين» . وقال بعض المتكلمين أن عجز الإنس عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز

لقد عجز فصحاء العرب عن معارضة القرآن أما قولهم «لو نشاء لقلنا مثل هذا» ، فهو دليل عجزهم وقد أورده الله مورد تقريعهم لأنهم لو كانوا صادقين قادرين لم يتخلفوا لحظة عن إنجاز وعدهم . فلما لم يفعلوا مع استمرار التحدي وتطاول زمن الفسحة علم عجزهم ووقوفهم عند الدعوى . مع أن المعارضة تتضمن الذود عن أديانهم القديمة وإخراجهم أنفسهم من تسفيه أحلامهم وقد كانوا في الحمية والأنفة إلى حد لا يقبلون معه الحق فضلا عن الباطل ومعلوم من حالهم أن أحدهم يقول في مثل الحشرات والأمور غير الهامة قولا بليغا تقع فيه المنافسة ويسعر الحرب في ناقة أو جمل .

أن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات كوصف البعير أو الفرس أو الجارية أو الحرب أو الضرب أو الطعن أو الأمير أو الملك وليس في القرآن

شيء من ذلك. مع أنه بلغ النهاية في الفصاحة. وأن القرآن صدق ولم يحم حول الكذب مع حين أن الشاعر لو التزم الصدق ونأى عن الكذب لنزل شعره ولم يكن جيدا. ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ولم يكن في الجودة كشعرهما الجاهلي - وأن الشعر الفصيح يكون في بعض الأبيات من القصيدة. والكلام الفصيح يكون في بعض الخطبة أو الرسالة. والقرآن كله غاية في الفصاحة. وأن من قال شعرا فصيحا في شيء إذا كرره في وصف ذلك الشيء لم يكن الثاني في منزلة الأول. مع حين أن في القرآن التكرار الكثير وكل في نهاية الفصاحة. وأن عبارات القرآن كلها في إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة وبيان الأحكام النافعة. ومن شأن ذلك لو كان من عند غير الله ‹‹ حبس عظيم الفصاحة ولكن لما كان من عند الله تعالى كان بالغ الغاية في الفصاحة والتأثير.

انظر إلى قوله تعالى في الترغيب ‹‹ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ›› وقوله تعالى ‹‹ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ›› وقوله في الترهيب ‹‹ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ›› وقوله ‹‹ وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ›› وقوله تعالى في الزجر ‹‹ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ››

وقوله تعالى في الوعظ « أفرأيت أن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون » وقوله تعالى في الالهيات « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار »

{ الكلام على أعجاز القرآن وآراء الناس فيه }

قال الإمام فخر الدين الرازي في كتابه نهاية الإيجاز . أن أن كان القرآن معجزا فقد حصل المطلوب وان لم يكن معجزا بل كانوا قادرين على معارضته بلا مانع كان الاتيان بما يعارضه لازما . فعدم الاتيان بهذه المعارضة نقض للعادة فيكون معجزا .

أن القرآن معجز واعجازه في فصاحته فان العرب طولبوا بمعارضته ولم يعارضوا ولولا عجزهم ما تركوا المعارضة وتعرضوا للطعن بالأسنة واقتحموا موارد الهلاك .

وللناس في كونه معجزا مذاهب أربع :

قال النظام - ان الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة وانما هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام . والعرب لم يعارضوه لأن الله صرفهم عن ذلك - وقوله هذا مردود . لأن الله لو أعجزهم بعد قدرتهم عليها

لما كانوا مستعظمين فصاحة القرآن متعجبين منها . بل كان تعجبهم من تعذر مثله عليهم بعد أن كان مقدوراً لهم . كيف وقد قال الله تعالى " قل لئن اجتمعت الإنس والجن الآية " فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم . ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم لأنه حينئذ بمنزلة اجتماع الموتى ومثل لا قيمة له . والاجماع منعقد على اضافة الاعجاز الى القرآن فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة اعجاز . والقول بالصرفة يلزمه اضافة الاعجاز الى الله لا الى القرآن .

ومن الناس من قال ان الاعجاز في مخالفة اسلوب اسلوب الشعر والخطب والرسائل ولا سيما مقاطع الآيات مثل يعلمون ويؤمنون . وهذا باطل لأنه يلزم ان يكون قول مسيلمة " انا أعطيناك الجماهر فصل لربك وجاهر " وقوله " والطاحنات طحنا " في أعلى مراتب البلاغة .

ومن الناس من جعل الاعجاز في أنه ليس فيه اختلاف وتناقض . وهو غير مقبول لأن التحدي كما وقع بالقرآن كله وقع بالسورة . وقد يوجد في خطبهم بمقدار سورة الكوثر ولا يكون فيه اختلاف وتناقض .

ومن الناس من رأى ان الاعجاز في اشتماله على الغيوب . وهو غير سديد لأن التحدي وقع بكل سورة والاخبار عن الغيوب لم يكن في كل سورة .

لقد بطلت هذه المذاهب فلم يبق وجه معقول في الاعجاز سوى الفصاحة . ليس اعجاز القرآن لأنه حكاية عن الكلام القديم لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة والانجيل وسائر الكتب المنزلة السابقة على القرآن معجزات في التأليف وظاهر أن الأمر ليس كذلك

وقال الرازي أيضا في تفسيره

القرآن إما أن يكون مساويا لكلام الفصحاء أو زائدا عليه بقدر لا ينقض العادة أو زائدا عليه بقدر ينقض العادة . والثالث متعين لبطلان الأوليين وأما بطلان الأول فلأنه لو كان كذلك لوجب أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين . فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحكام يزيلون الشبه . والمعارضة أقوى القوادح فلما لم يعارضوا علمنا عجزهم . فالقرآن فوق كلامهم والتفاوت ليس بقدر معتاد بل هو تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزا .

وفي الإتقان للسيوطي اختلف في قدر المعجز من القرآن فذهب بعض المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن . ولكن التحدي بسورة يرده . وقال القاضي يحصل الإعجاز بسورة أو قدرها من الكلام بحيث تتبين فيه قوى البلاغة . ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من سورة الكوثر . وقال قوم لا يحصل الإعجاز إلا بالآيات الكثيرة . وقال آخرون يتعلق الإعجاز بقليل القرآن وكثيره لقوله تعالى فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . قال القاضي ولا دلالة في هذه الآية لأن الحديث التام لا تكون حكايته في أقل من كلمات السورة القصيرة .

اختلف في أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة . فقال الأشعري

أن كون القرآن معجزا يعلم بالاستدلال . لكن قال القاضي لا يمكن الأعجمي أن يعلم أعجازه ألا بالاستدلال وكذلك غير البليغ . فأما البليغ الذي أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة فأنه يعلم من نفسه بالضرورة عجزه وعجز غيره .

اتفق العلماء على أن القرآن في أعلى مراتب البلاغة بحيث لا يوجد في التراكيب ما هو أشد تناسبا ولا اعتدالا في أفادة ذلك المعنى منه . ثم بعد ذلك اختلفوا أتتفاوت مراتبه في الفصاحة أم لا تتفاوت . قال القاضي لا تتفاوت وكل كلمة فيه موصوفة بالذروة العليا وأن كان بعض الناس أحسن أحساسا به من بعض . وقال القشيري وغيره . تتفاوت مراتبه ولا ندعي أن كل ما في القرآن على أرفع الدرجات في الفصاحة . وإلى هذا نحى الشيخ عز الدين بن عبد السلام ثم أورد سؤالا وهو أنه لم لم يأت القرآن جميعه بالأفصح . وأجاب عنه الصدر الجزري بما حاصله لو جاء القرآن جميعه بالأفصح لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب من الجمع بين الفصيح والأفصح فلا تتم الحجة في الأعجاز . أذ قد يقال مثلا أنه جاء بما لا قدرة للعرب على جنسه . كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى قد غلبتك بنظري لأن الأعمى يقول له أنما تتم لك الغلبة لو كنت قادرا على النظر وكان نظرك أقوى من نظري أما أذا فقد أصل النظر فكيف تصح مني المعارضة .

قال بعضهم التحدي إنما وقع للإنس دون الجن لأنهم ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه وإنما ذكروا في قوله تعالى "قل لئن اجتمعت الإنس والجن" الآية تعظيما لشأن الإعجاز لأن للهيئة الاجتماعية من القوة ما ليس للأفراد فإذا فرض اجتماع الثقلين وظاهر بعضهم بعضا وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز. وقال بعضهم وقع التحدي للجن أيضا. أما الملائكة فمنويون في الآية لأنهم لا يقدرون على الإتيان بمثله. وقال الكرماني إنما اقتصر في الآية على ذكر الجن والإنس لأنه صلى الله عليه وسلم بعث إلى الثقلين دون الملائكة.

"الشعر والقرآن"

القرآن الكريم منزه عن الشعر. والحكمة في ذلك - مع أن الموزون من الكلام رتبته فوق رتبة غيره - أن القرآن منبع الحق ومجمع الصدق. وقصارى أمر الشاعر التخييل بتصوير الباطل في صورة الحق والإفراط في الإطراء والمبالغة في الذم والإيذاء دون إظهار الحق واتباع الصدق ولهذا نزه الله نبيه عنه فقال "وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمى أصحاب البرهان القياسات المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية. وقال بعض الحكماء لم ير متدين صادق اللهجة مفلقا في شعره.

وقد وقع في القرآن نحو « هيهات هيهات لما توعدون » صورة شطر من السريع ونحو « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » صورة بيت من مجزوء الرجز . وقد أجاب العلماء بأن الشطر والبيت الواحد لا يكونان شعرا وأن أقل الشعر بيتان على قافية واحدة . ومنهم من قال الرجز ليس بشعر ولا سيما مشطوره ومنهوكه وكذلك ما كان كالرجز في قلة الأجزاء وقالوا لا بد أن يكون هناك قصد للشعر فما جاء بلا قصد لا يكون شعرا . وما في القرآن اتفاق يقع مثله كثيرا في الكلام . والعرب أدرى الناس بالشعر فلو اعتقدوا أن القرآن شعر لبادروا إلى معارضته .

« السجع والقرآن »

ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعري وطائفة إلى نفي السجع من القرآن . وذهبت طائفة إلى إثباته وزعموا أنه مما يبين به فضل الكلام كالجناس والالتفات . وأقوى ما يستدلون به أنه معروف أن موسى أفضل من هرون عليهما الصلاة والسلام ولمكان السجع قيل نحو « هرون وموسى » وقيل « موسى وهرون » وقد كثر هذا الضرب في القرآن فلا يتفق إلا أن يكون مقصودا . ~~ولو كان سجعا لكان~~ ولكن لو كان سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ولو جاز أن يقال سجع معجز لجاز أن يقال شعر معجز . إن السجع لا يخلو أن يتبع المعنى فيه اللفظ وسجع الكهان كذلك . ويضاف إليه استعماله على الباطل . ويقابل ذلك ما فيه من نغمة التقفية . ومن ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سجع الكهان

فلا يجوز أن يناسبه الكلام المعجز . السجع مما يألفه العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون مع نفي الشعر لأن الكهانة تنافي النبوة .

ما في القرآن يسمى فواصل يتبع فيها اللفظ المعنى . وفواصل خاصة به . وتقديم هارون على موسى في موضع ليس لمطابقة السجع . بل الأمر وقيمته تظهر فيه الفصاحة ونكتة لطيفة يدركها البلغاء وهى إعادة القصة بلفظ مختلف ليقبل عليها السامع كأنها شيء جديد . ولا يلزم من تقديم هارون على موسى في الذكر أنه أفضل منه .

قال الله تعالى « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » :

لما أرشدهم إلى الجهة التي منها يتعرفون صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به . وأن القرآن الكريم هو كلام خالق القوى والقدر . رتب عليه ما هو كالعقد لكم له ولذا أتى بالفاء . أى إذا بذلتم في السعي غاية المجهود وجاوزتم في الجد كل حد معهود متشبثين بالذيول راكبين متن كل صعب وذلول وعجزتم عن الإتيان بمثله وما يدانيه في أسلوبه وفصله ظهر أنه معجز . والتصديق به لازم فآمنوا واتقوا النار . وصدر الكلام بإن الدالة على الشك . والمقام يقتضى إذا الذى للوجوب فإن القائل ذلك وهو الله تعالى لم يكن شاكا في عجزهم ولذلك نفى إتيانهم معترضا بين الشرط والجزاء . تهكما بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يقاويه إن غلبتك لم أبق عليك وهو

يعلم أن غالبه ويتيقنه وإنما يقول ذلك تهكماً به . أو أنه تعالى ساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام . وعبر سبحانه عن الفعل الخاص - حيث كان الظاهر فإن لم تأتوا بسورة من مثله - بالفعل المطلق العام للإيجاز البديع المغني عن التطويل والتكرير مع سر سري استقل بالمقام وهو الإيذان بأن المقصود بالتكليف هو إيقاع نفس الفعل المأمور به لإظهار عجزهم عنه لا تحصيل المفعول أي المأمور به ضرورة استحالته وأن مناط الجواب في الشرطية أعني الأمر بالاتقاء هو عجزهم عن إيقاعه لا فوت حصول المفعول .

وقيل أطلق الفعل وأريد به الإتيان مع ما يتعلق به على طريقة التعبير عن الأسماء الظاهرة بالضمائر الراجعة إليها حذراً من التكرار أو على طريقة ذكر اللازم وإرادة الملزوم لما بين عدم الفعل وعدم الإتيان من التلازم المصحح للانتقال من أحدهما إلى الآخر بمعونة المقام - وكلمة لن لنفي المستقبل كلا إلا أنه في لن زيادة تأكيد وتشديد - تقول لصاحبك لا أقيم غداً فإن أنكر عليك قلت لن أقيم غداً كما تفعل في أنا مقيم وإني مقيم . وجملة لن تفعلوا اعتراض بين جزئي الشرطية مقرر لمضمون مقدمها مؤكد لإيجاب العمل بتاليها. وحسن هذا الاعتراض أن لفظ الشرط للتردد فقطع التردد بقوله ولن تفعلوا . وهي معجزة باهرة حيث أخبر بالغيب الخاص علمه به عز وجل وقد وقع الأمر كذلك . كيف لا ولو عارضوه بشيء يدانيه في الجملة لتناقله الرواة

خلفا عن سلف لتوافر الدواعي . وما أتى به نحو مسيلمة الكذاب مما تضحك منه الثكلى
لم يقصد به المعارضة وانما ادعاه وحيا . وقوله تعالى « فاتقوا النار » جواب الشرط
على أن اتقاء النار كناية عن وجوب الايمان والاحتراز من العناد لأن ذلك هو
الجزاء الحقيقي المترتب على اجتهادهم جميعا في معارضته وعجزهم عنها . كأن قيل
فإذا عجزتم عن الاتيان بمثل ما هو المفترى فآمنوا واحترزوا من انكار كونه منزلا
من عند الله سبحانه فإنه مستوجب للعقاب بالنار . لكن أوثر عليه الكناية المذكورة
المبنية على تصوير العناد بصورة النار وجعل الاتصاف به عين الملابسة بها .
للمبالغة في تهويل شأنه وتفظيع أمره وإظهار كمال العناية بتحذير المخاطبين
منه وتنفيرهم عنه وحثهم على الجد في تحصيل المكنى عنه . وفيه من الإيجاز البديع
ما لا يخفى حيث كان الأصل فإن لم تفعلوا فقد صح صدقه عندكم وإذا صح
ذلك كان لزومكم العناد وتركم الايمان سببا لاستحقاقكم العقاب بالنار
فاحترزوا منه واتقوا النار . ويصح أن يكون المكنى عنه في الآية هو تحذيرهم من
الريب في شأن القرآن ومن اعتقادهم فيه أنه من كلام البشر . بل ان تجاوب ~~الكلام~~
أطراف النظم تقتضي ذلك وكأن الأصل الكلام وإن كنتم في ريب فأتوا بسورة فإن لم
تفعلوا ولن تفعلوا فتحرزوا من هذا الريب وتباعدوا عن اعتقاد أنه من كلام البشر
وآمنوا بأنه من عند الله تعالى فأقام مقامه فاتقوا النار لأن الخوف منها مما يوجب
أن يتباعدوا عن الريب في شأن المنزل وألا يجردوا على الخطر فيه بما هو منه بريء وكأن
صور ريبهم فيه واعتقادهم أنه من كلام البشر بصورة النار وجعل اتصافهم

بذلك عنه للملابس بها مبالغة في تفظيع اعتقادهم وتهويل ريبهم وحضا لهم على
الفرار من ملابسته والهرب من ملامسته . وقوله تعالى «التي وقودها الناس
والحجارة» صفة للنار مبينة لما به اشتعالها مورثة لها زيادة هول وفظاعة. أعاذنا
الله وإياكم من ذلك . والوقود بالفتح كما قرأه الجمهور ما يوقد به النار كالحطب
وكذا كل ما جاء على فَعول اسم لما يفعل به في المشهور . وقرئ بضم الواو وهو
مصدر سمي به المفعول مبالغة كما يقال فلان فخر قومه وزين بلده . والمعنى
أنها من الشدة بحيث لا تمس شيئا من رطب أو يابس إلا أحرقته لا كنيران الدنيا
تفتقر في الالتهاب إلى وقود من حطب أو حشيش . والحجارة جمع حجر كجمالة جمع
جمل والمراد بها الأصنام التي نحتوها وقرنوا بها أنفسهم وعبدوها طمعا
في شفاعتها والانتفاع بها ويدل عليه قوله تعالى «إنكم وما تعبدون من دون الله
حصب جهنم» فهذه الآية مفسرة لما نحن فيه فقوله إنكم وما تعبدون من دون
الله في معنى الناس والحجارة وحصب جهنم في معنى وقودها . ولما اعتقد الكفار
في حجارتهم المعبودة من دون الله أنها الشفعاء والشهداء الذين يستشفعون بهم
ويستدفعون المضار عن أنفسهم بمكانهم جعلها الله عذابهم فقرنهم بها
محماة في نار جهنم إبلاغا في إيلامهم وإغراقا في تحسيرهم وهناك يتم لهم
نوعان من العذاب روحاني وجسماني . ونحوه ما يفعل بالكانزين الذين
جعلوا ذهبهم وفضتهم عدة وذخيرة فشحوا بها ومنعوا منها الحقوق حيث
يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم . فكل من الفريقين

معذب بما هو منشأ جرمه . وقيل هي حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وذهاب
بما هو المعنى الصحيح الواقع المشهود له بمعاني التنزيل وإبطال للمقصود إذ
المراد تهويل شأنها وتفاقم لهيبها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها والكبريت
تتقد به كل نار . لكنه قد ورد عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله تعالى عنهم
ولمثل ذلك حكم الرفع أنها حجارة الكبريت . فإن صح هذا فلعل المراد أن
الأحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران اه .

والظاهر أن الناس والحجارة يسعران النار ويزيدان في لهيبها لا أن
مادة النار وتكونها منهما كما يتبادر إلى الفهم وإلا لما تلاقى مع قوله تعالى
أعدت للكافرين ولما صح استدلال العلماء بذلك على وجودها لظهور أنهما
خارجان عنها . كما أن الظاهر أن الناس المقترنين بالحجارة يسعرانها تقع
منها خاصة بعبدة الأوثان لا أنها كلها مسعرة بهما كما يتبادر ذلك .
ولو حملنا الحجارة على حجارة الكبريت لا كتفينا مؤونة بيان ذلك . وإنما
جعل هذا الوصف صلة للموصول مقتضية لكون انتسابها إلى ما نسبت إليه معلوما
للمخاطب بناء على أنهم سمعوه من أهل الكتاب قبل ذلك أو من الرسول
صلى الله عليه وسلم أو سمعوا قبل هذه الآية المدنية قوله تعالى في سورة التحريم
"نارا وقودها الناس والحجارة"، فأشير هاهنا إلى ما سمعوه أولا. وكون سورة
التحريم مدنية لا يستلزم كون جميع آياتها كذلك كما هو المشهور . وأما أن
الصفة أيضا يجب أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند المخاطب

فالخطب فيه هين لأن المخاطب هنا المؤمنون وظاهر أنهم سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وقوله تعالى « أعدت للكافرين » أي هيئت للذين كفروا بما نزلناه وجعلت عدة لعذابهم - والمراد بهم أما جنس الكفار والمخاطبون داخلون فيهم دخولا أوليا . وأما المخاطبون خاصة . ووضع الكافرين موضع ضميرهم لذمهم وتعليل الحكم بكفرهم . والجملة استئناف لا محل لها من الإعراب مقررة لمضمون ما قبلها ومؤكدة لإيجاب العمل بها وجيئ لمن أريد بالناس دافعة لاحتمال العموم . وقيل حال من النار بإضمار قد . وقيل صلة بعد صلة أو عطف على الصلة بترك العاطف ..

« معنى الآية الكريمة »

ولما بين سبحانه وتعالى بالأدلة النيرة والبراهين القاطعة حقية ما يدعيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن الكتاب الذي أنزل عليه لا ريب فيه من رب العالمين يتحداهم بالإتيان بما يضارع أقصر سورة من سوره واستنهض هممهم استنهاضا مقرونا بالتقريع وحثهم على بذل غاية ما يمكنه بذله مجتمعين ومتظاهرين في السعي لتحصيل ذلك فلما سكتوا ولم ينبسوا ببنت شفة . عقب ذلك بالنصح والإرشاد كما هي عادة سبحانه مع سائر العباد . فأمرهم أن يتركوا العناد ويسلموا للانقياد فقال فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا الخ الآية أي أننا قد جاريناكم في دعاويكم الباطلة وتشبثاتكم العاطلة وأرخينا لكم العنان فلم نقطع بعجزكم

عن الإتيان لتبذلوا غاية الوسع وتفرغوا قصارى الجهد حتى ينقطع عذركم
المطلول ويبطل تعلقكم بالذيول وما تتلقفون بألسنتكم من الفضول
وها أنتم قد تحققتم عجزكم وأخرس الآن لسانكم فلم تفعلوا ما طلبتم إليه ولم
توقعوا ما أمرتم به ولن يتيسر لكم ذلك مهما أوتيتم من عناد وثابرتم على العناد
فآمنوا خيرا لكم ولا تفرطوا الحق بعنادكم ودعوا عنكم ما تعتقدون فيه من
الأباطيل المموهة والأضاليل المزخرفة فإن هذا مما يلحق بكم العار ويقودكم
إلى عذاب النار التي تعلمون من شأنها ومن عظم هولها أنها لا تمس شيئا من
رطب أو يابس إلا أتت عليه وكأنها لفرط حرارتها وشدة حدتها تتعلق
في أول أمرها بالحجارة التي هي مخمدة لنيران الدنيا ومطفئة لها فما أعظم
أمرها وما أشد بأسها فخافوها تسلم طويتكم وتؤمن عاقبتكم فإنا قد
أعددناها لمن كفر بما أنزلناه وهيأناها لمن ترك الحق واتبع هواه

«بعض لطائف الآية الكريمة»

في هذه الآية وما يشبهها من وصفه تعالى الجنة بقوله أعدت للمتقين دلالة
على أنهما مخلوقتان موجودتان الآن وإلى ذلك ذهب الجمهور خلافا لمن قال
أنهما لا يوجدان إلا يوم القيامة . ودليل الجمهور قوله تعالى (أعدت للمتقين)
(أعدت للكافرين) فقد أخبر عن إعدادهما بلفظ الماضي فدل على أنهما
مخلوقتان وإلا لزم الكذب في خبره تعالى وهو محال . أو صرف اللفظ

عن ظاهرها لغير ضرورة . وأن سكنى آدم عليه السلام الجنة وإخراجه منها يدل على ذلك . قيل لو كانت الجنة مخلوقة لما كانت دائمة لقوله تعالى «كل شيء هالك إلا وجهه» والتالي باطل لقوله تعالى أكلها دائم .

والجواب أن معنى كونه هالكا أي معدوما في حد ذاته بقطع النظر عن استفادة الوجود من الخالق سبحانه جل شأنه . لا أن العدم يطرأ عليه بالفعل . فلا يلزم من كون الجنة مخلوقة الآن طريان العدم عليها . ولئن سلم أن معناه أن كل شيء مما سوى الله تعالى يطرأ عليه العدم بالفعل فهو مخصوص بما بين الأولين . وحينئذ يكون معنى الآية كل شيء مما سوى الله تعالى وغير الجنة والنار يطرأ عليه العدم بالفعل .

ويستفاد منها معجزة ظاهرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث نفى وقوع الإتيان وشدد في ذلك بالإتيان بأداة هي أبلغ من سائر أخواتها في الدلالة على ذلك وكان الواقع وصدق قاله .

وأن المحق في أمره ينبغي ألا يدفعه تماسك الخصم إلى الوقوف في وجه خصمه وسد باب الكلام والحوار معه بل يلزمه أن يراعي حاله ويجاريه ويتنزل معه لعله ينصاع إلى الحق ويرجع إلى الرشد .

وأن ملابس المعصية ملابس لجزائها وكأنه بفعلها واقع فيه .

وأن النار مخلوقة الآن معدة للكافرين أعاذنا الله منها أجمعين .

وأن الكناية عن الشيء بغيره من طرائف الكلام البليغ .

وأنه الأربجاز بكسب الكلام حسنا وقبولا .

وصلى الله على سيدنا محمد

النبى الأمى وعلى

آله وصحبه

وسلم

آمين

"بيان المراجع التى استقيت منها"

تفسير العلامة الشيخ ابى السعود
" " الفخر الرازى
" " الألوسى
" " الكشاف
" " البيضاوى
" " النسفى
أعجاز القرآن للباقلانى
الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى
نهاية الأيجاز للرازى
شرح التلخيص للسعد

الفهرست

نمرة الصحيفة